من أدب القرن التاسع

كتاب « سحر العيون »

للأســـتاذ أحمد يوسف نجاتي

— ٢ —

٦ — ومن أولاد أبي الوليـــد بن الشحنة أوحد الدين عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود : ولد سنة ٧٨٨ وتلقى العـلم ببلده وبالقاهرة ، وولي قضاء مدينة « صفد » مراراً ، وناب في القاهرة عن قاضيها [1] وتوفي بها بالطاعون[2] سنة ٨٣٣ هـ . رحمه الله

وهؤلاء المتقدمون من بني الشحنة أدركهم الموت قبل مولد البدريّ صاحب « سحر العيون » ؛ وأما الذين عاصرهم البدري وانتمى إليهم فمنهم :

٧ — محب الدين أبو الفضل بن المحب أبي الوليد المتقدم ابن كمال الدين ، فهو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود وهو من أشهر بني الشحنة وأسيرهم ذكراً : ولد بمدينة حلب سنة ٨٠٤ ، فهو أسنّ من البدريّ بنحو ٤٣ سنة ، وسافر مع والده صبيًّا لم يبلغ عشر سنين إلى مصر ، ثم قدم إليها مستقلاً بنفسه بعد ذلك ، وتلقى العلم بمدن الشام ومصر ، وجدّ في الطلب ، وأخذ عن كثيرين من أجلاء عصره بالقطرين ، وكان آية في الذكاء وقوة الحافظة حتى قيل فيه :

سمح الزمان بمثـله فاعجب له ... إن الزمان بمثله لشحيح
فالأصل زاكٍ والخلال حميدة ... والذهن صاف واللسان فصيح

وفيه يقول بعض شيوخه[1] :

أقسمت إن جدّ وطال المدى ... أروى الورى من بحره الزاخر
فقل لمن بالسبق قد فضّلوا ... (كم ترك الأول للآخر ؟)

ولما كملت أداته ، ولي الوظائف الجليلة من قضاء وتدريس ونحوها فولي قضاء الحنفية بمدينة حلب سنة ٨٣٦ وعظمت رياسته وظهرت كفايته ، وانطلقت الألسنة بذكره ، وظل في مدة الظاهر جقمق[2] بين رفعة وخفض وولاية وعزل حتى ولي كتابة السر بالقاهرة سنة ٨٥٧ ، ولم يلبث أن صرف عنها وبقي بالقاهرة حيناً من الدهر في عيشة غير راضية ، ثم رحل إلى بيت المقدس وأقام بها إلى سنة ٨٦٢ ثم عاد إلى وطنه حلب . ثم ولي كتابة السر بالقاهرة ثانية سنة ٨٦٣ ، فساز فيها سيرة مشكورة وأقبل

---

(١) هو بدر الدين محمد بن أبي بكر بن محمد بن سلامة المارديني الحلبي الحنفي كان فقيهاً فاضلا متفناً علوم العربية واللسان ولد سنة ٧٠٥ وتوفي بحلب سنة ٨٣٧

(٢) هو الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبد الله العلائي الظاهري ولي سلطنة مصر والشام سنة ٨٤٢ وكان ملكا جليل القدر عظيم السلطان قد صفا له الوقت وطابت في زمنه الأيام وعمر كثيراً من المساجد والمدارس والقناطر والجسور ، وعمر مسجد الخيف بمنى ، وجدد في الحرم الشريف مواضع ، وكان قد حبب إليه البر وعمل الخير فأنفق في سبيل ذلك أموالا طائلة ، وكان محباً للعلماء والفقهاء والأشراف والصالحين مكرماً لهم جواداً عف الذيل واليد واللسان شجاعاً فقيهاً فاضلا ، وأخذ بنيه بالتفقه في الدين وتلقي العلم عن أجلاء عصره (وكان ابنه نور الدين أبو المعالي محمد المولود في سنة ٨١٦ ماهراً في العلم حافظاً للقرآن الكريم ، وله ألف ابن تغري بردي كتابه « النجوم الزاهرة » ، وأدركته منيته في سنة ٨٤٧ (وهي السنة التي ولد فيها صاحبنا البدري) ، ثم لما أحسن الملك الظاهر جقمق بدنو أجله خلع نفسه من الملك في أوائل سنة ٨٥٧ وعهد بالأمر إلى ولده الملك المنصور عثمان ، ولم يلبث أن توفي في ٣ صفر سنة ٨٥٧ ، وخلع ولده المنصور عقب ذلك وتولى الملك بعده الملك الأشرف إينال العلائي الآتي ذكره

(١) هو القاضي زين الدين عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن علي ابن هاشم الفقهي المصري توفي سنة ٨٣٥

(٢) في سنة ١٨٣٣ اشتدت وطأة الطاعون بالشام ومصر قال ابن حجر أركب أربعون نفساً مركبا يقصدون الصيد فما وصلت منتصف الطريق حتى مات الجميع وأن ثمانية عشر صياداً اجتمعوا في مكان فمات منهم في يوم واحد أربعة عشر فجهزهم الأربعة فمات منهم وهم في الطريق ثلاثة فلما وصل بهم الآخر إلى المقبرة مات هو !

عليه السلطان الأشرف « إينـال » إقبالاً عظيماً حتى كان هو المنشئ لعهده فى مرض موته لولده أحمد الملقب « بالمؤيد » ، وبقى بعـد ذلك بالقاهرة يتقلد وظائف القضاء والتدريس ، ولاقى كثيراً من صروف الزمان ومنافسة الأقران حتى توفى بالقاهرة فى أوائل سنة ٨٩٠ . فبان من هذا أن الذى أنشأ عهد « إينال » لولده « المؤيد » هو أبو الفضل المحب الأصغر لا أبوه أبو الوليد المحب الأكبر المتقدم والمتوفى سنة ٨١٥ ، ولكن رأيت فى فهرس دار الكتب بالجزء الخامس صفحة ٢٧٣ ما يأتى :

« عهد للسلطان المؤيد أبى الفتح أحمد بن الملك الأشرف « إينال » تأليف العلامة أبى الوليد قاضى القضاة محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازى بن أيوب الشهير بابن الشحنة التركى الحلبى الحنفى المولود سنة ٧٤٩ ، والمتوفى بحلب يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٨١٥ هـ أوله : هذا عهد شريف تبسم ثغر رُبيعه لما تنسم الخ (نسخة ضمن مجموعة فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد) ا هـ رقم ٥٩ ؛ وهذا غير معقول ، فإن الملك الأشرف سيف الدين أبا النصر إينال العلائى — وهو الثانى عشر من ملوك الجراكسة — إنما ولى مملكة مصر فى شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧ : (بعد وفاة أبى الوليد المحب الأكبر والد أبى الفضل المحب الأصغر بنحو ٣٢ سنة) ؛ واستمر الملك الأشرف « إينال » سلطاناً إلى أن خلع نفسه وعقد الولاية لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبى الفتح أحمد فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ٨٦٥ بعـد وفاة أبى الوليد بنصف قرن . (فينبغي إصلاح ما فى فهرس الدار بنسبة العهد إلى كاتبه ، وإنما كان الاشتباه ، لأن ابنى الشحنة هذين الأب وابنه يلقب كلاهما « بالمحب ابن الشحنة » ، وإنما يميز بينهما بالكنية ؛ فكنية كاتب العهد أبو الفضل توفى سنة ٨٩٠ ، وكنية والده أبو الوليـد وتوفى سنة ٨١٥ . هذا ، وقد توفى الأشرف « إينال » عقب ذلك بيوم واحد (١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥) ، ومكث ولده المؤيد أحمد سلطاناً زهاء خمسة أشهر ، ثم خلعه أتابكه (مربيه) الملك الظاهر «خشقدم» سيف الدين فى شهر رمضان سنة ٨٦٥ الذى كان سلطاناً باراً محباً للخير توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٨٧٢ .

ولقد كان المحب بن الشحنة أبو الفضل عالماً جليلاً أديباً فصيحاً بديع النظم والنثر سريعهما حلو الحديث حسن العشرة يميل إلى النكتة اللطيفة والنادرة الظريفة ، عذب الروح رقيق الطبع علىّ الهمة صبوراً على محن الدهر ورزايا الأيام ، ذا شغف بجمع الكتب واقتناء النادر منها . وله مصنفات فى الفقه والأصول والحديث والتفسير والتاريخ وغيرها . وله من مطلع قصيدة وهو بالقدس :

قلب المحب بدار البين مشغول ... كما حشاه بنار البعد مشعول
وطرفه الليل ساه ساهر أرق ... ودمعه فوق صحن الخد مسبول

وله مما يقرأ على قافيتين :

قلت له لما وفى موعدى ... وما بقلبى لسواه انفاق
وجاد بالوصل على وجهه ... حبى سما كل حبيب وفاق

وله يطلب الإجازة فى سنة ٨٢٨ من الأستاذ العلامة أحمد ابن حجر المشهور المتوفى سنة ٨٥٢ :

وإذ عاقت الأيام عن ثم قربكم ... وضنّ زمانى أن أفوز بطائل
كتبت إليكم مستجيزاً لعلّتى ... أبلّ اشتياقى منكم بالرسائل

ومن مؤلفاته التاريخ المسمى (نزهة النواظر فى روض المناظر) وهو تاريخ كبير جعله كالشرح لتاريخ أبيه المسمى (روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر) السابق . وله — كما فى فهرس الدار — كتاب (الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب) ضمنه تاريخ مدينة حلب وآثارها ومعاهدها ومعابدها وجوامعها ومدارسها وغير ذلك مما يتعلق بشؤون مملكة حلب التاريخية والجغرافية ، وجعله ذيلاً على (بغية الطلب فى تاريخ حلب) . تأليف العلامة المؤرخ كمال الدين أبى حفص عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن أبى جرادة العقيلى المعروف بابن العديم الحلبى المولود سنة ٥٨٦ والمتوفى سنة

٦٦٠ ؛ وقد انتهى فى تاريخه إلى سنة ٦٥٠ ؛ ومنه بدار الكتب ١٤ جزءاً متتابعة فى ثلاثة مجلدات . وقد رتب المحب بن الشحنة تاريخه على تمهيد وفاتحة وخمسة وعشرين باباً . وقد طبع بمدينة بيروت سنة ١٩٠٩ م ، وبدار الكتب الملكية نسخة منه قيمة رقم ٢٣٢٦ تاريخ ، وأخرى رقم ٢٣٢٧ . هذا وفى كشف الظنون فى الكلام على (بغية الطلب فى تاريخ حلب) لابن النديم ما يأتى :

والذيل عليه لأبى الحسن على بن محمد بن سعد الحلبى الجبرينى المعروف بابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ٨٤٣ ، رتب الأعيان على الحروف وسماه (الدر المنتخب) . ولما طالعه الحافظ بن حجر حين قدم حلب سنة ٨٣٦ ألحق به أشياء كثيرة ثمينة وأثنى على صاحبه . ثم ذيل عليه موفق الدين أبو ذر أحمد بن إبرهيم بن محمد الحلبى المتوفى سنة ٨٨٤ وسماه (كنوز الذهب فى تاريخ حلب) . ولم يذكر فى كشف الظنون أن ابن الشحنة ألف تاريخاً لحلب اسمه (الدر المنتخب) فلعله جمع هذه الذيول قبل وفاته سنة ٨٩٠ وتصرف فيها ونسبها لنفسه ـ والله أعلم ـ أو لعله ألف تاريخاً لحلب مستقلاً واستعار اسمه من اسم تاريخ خطيب الناصرية . وقد يرجح هذا بما ذكره صاحب كشف الظنون فى موضع آخر قال (كنوز الذهب فى تاريخ حلب) لأبى ذر أحمد بن البرهان إبرهيم الحلبى المتوفى سنة ٨٨٤ ذيل به (الدر المنتخب فى تراجم أعيان حلب) . وأقول إذا علمت أن محب الدين بن الشحنة كان زوج السيدة خديجة بنت القاضى علاء الدين على بن محمد بن سعد التقدم المعروف بابن خطيب الناصرية مؤلف (الدر المنتخب) هان الخطب ووضح المشكل ، على أنه يؤخذ من ترجمته الطويلة فى الضوء اللامع أنه ألف تاريخين وذكر له عدة مؤلفات فى علوم مختلفة .

(يتبع)

أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بكلية اللغة العربية

إلى عواة المعاصى وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بقمرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .

إلى المتسابقين

ظهر كتاب « الإحاطة بما فى الوساطة » بين المتنبى وخصومه شرح وتهذيب الأستاذ « محمد حسنين عيد » المدرس بمدرسة (المحمودية) الأميرية بالبحيرة .

يطلب من المؤلف ومن المكاتب الشهيرة بالقاهرة والأقاليم